﴿سورة الضحى﴾

وفيها تسع مسائل :

المسألة الأولى: ما الفرق بين ﴿وَدَّعَكَ﴾ وبين ﴿قَلَىٰ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ(٣)﴾ ؟

والجواب: ودع الشئ أى تركه وأهمله، قال ابن منظور: (وسائر القُرّاء قرأوه" ودّعك" بالتشديد وقرأ عروة بن الزبير (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ) بالتخفيف والمعنى فيهما واحد أَي ما تركك ربك) [١]، قال العلامة السعدى – رحمه الله –: (﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ**﴾أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة، ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾ وما قلاك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده) [٢]، كما أن التوديع إنما يكون بين المتحابين، بيد أن القِلى فهو البغض والكره، ولا يكون إلا بين المتخاصمين المتباغضين.

المسألة الثانية: هنا سؤال له علاقة باللفظين: لم ذكر الله ﷻ ضمير المخاطب وهو (الكاف) مع ودع، فقال: ﴿وَدَّعَكَ﴾، ولم يذكره مع القِلى فلم يقل: (وما قلاك) بل قال: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؟

والجواب: هنا إشارة فى غاية الإبداع والإيناس لنبينا ﷺ وهو المخاطب فى الآية بضمير المخاطب (الكاف)، حيث ذكره الله ﷻ مع التوديع وهو لا يكون إلا بين المتحابين، فقال: ودعك، ولم يذكره بالضمير فى القِلى وهو لا يكون إلا بين المتخاصمين الكارهين، فنزه الله ﷻ رسوله ﷺ أن يُذكر حتى ولو بالضمير فى مثل هذا المقام فقال: ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾، وفى ذلك معنى الإكرام لنبينا ﷺ فى الذكر، وفى الحذف أكرمه في الذكر ﴿**وَدَّعَكَ**﴾، وفي الحذف ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾.

كما جاءت ﴿**وَمَا قَلَىٰ**﴾ من غير ضمير مراعاة لانسجام الفواصل بين الآيات، (الضُّحَى، سَجَى، ومَا قَلَى، فَتَرْضَى، فَآوَى، فَهَدَى، فَأَغْنَى) .

---

(١) لسان العرب ، ٨/٣٨٠ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٢٨ .

المسألة الثالثة: لم وجه الله تعالى كلامه لنبيه فى قوله: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الأُولَى(٤)﴾ ولم يأت الكلام عاماً للناس جميعاً ؟

والجواب: لأن هذا الكلام لا يصلح أن يكون عاماً لعموم الناس فليس كل الناس آخرتهم خير من دنياهم بل إن بعض الناس – عياذاً بالله – دنياهم خير لهم من أخراهم كالكفار والظلمة والمجرمين، لذا جاء الكلام خاصاً لنبينا ﷺ ولم يصلح أن يكون خطاباً عاماً لجميع الناس .

المسألة الرابعة: لِمَ لم يحدد العطاء من الله تعالىبل تُرِك مفتوحاً، فى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ﴾ ؟

والجواب: إن هذا عطاء ملك الملوك فلا يحده حد، ولا يعده عد، هو عطاء تُرِك مفتوحاً دلالة على كثرته وتنوعه وعدم القدرة على حصره ولا تخيله، هو عطاء ملك الملوك يأتى لعبده متنوعاً بين نِعم معارف ونِعم قرب ونِعم دنيا ونِعم نفس ونِعم دين ... ولا يقف على نعمه أحد .

المسألة الخامسة: ما دلالة قوله: ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ بدلاً من فتسعد أو تهنأ أو نحو ذلك ؟

والجواب: إن فى ذلك إشارة إلى أن أقصى غايات السعادة والعطاء أن يُرزق العبد الرضا، فالفقير مع الرضا غنىٌ والغنىٌ مع السخط فقير، ولذا جعل الله ﷻ أقصى درجات سعادة المؤمنين فى الجنة الرضا بالله وعن الله، فقال ﷻ: **﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾**(١)، وقال عن نفس المؤمن:**﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً٢٨﴾**(٢)، ونحن فى حياتنا اليومية نجد أناساً أعطاهم الله ﷻ من كل أصناف الرزق لكنهم حُرِموا نعمة الرضا، فلم يشعروا بما هم فيه من نِعَم، وعاشوا حياة مِلؤها القلق والكمد، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) سورة البينة / من الآية ٨ .
(٢) سورة الفجر / الآيتان ٢٧ – ٢٨ .

المسألة السادسة: كثيراً ما يتوقف القارئ عند قوله ﷻ ممتناً على رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧)﴾ فما معنى ضالاً فى الآية ؟

والجواب: الضلال هنا لا يمكن أن نفهمه على أنه عكس الهداية، فالأنبياء من هذا الضلال معصومون، وإنما للضلال هنا معان كثيرة ذكرها المفسرون، ومنها :

- أنها بمعنى الغفلة كما قال القرطبى وغيره، والمعنى: (أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك أي أرشدك) [١].

- (وقال قوم: ﴿ **ضَالاًّ**﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك اللهﷻ إلى القرآن، وشرائع الإسلام وهو معنى قوله ﷻ: ﴿**مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ**﴾ [٢].

ومن أجمل ما قرأتُ فى هذا المعنى ما حكاه أبو حيان صاحب "البحر المحيط" من أنه نام متفكراً فى معنى هذه الآية فرأى فى منامه أنه يقرأ هذه الآية ويفكر فيها، فيقول فى منامه: ﴿**وَوَجَدَكَ**﴾ أي وجد رهطك، ﴿**ضَالاًّ**﴾ فهداه بك)[٣] فيكون وصف الضلال هنا ليس منسوباً للنبى ﷺ بل هو صفة لقومه أى وجد قومك على ضلال فهداهم بك، قلتُ: والله ما أجمله من تأويل وليس هذا بمستغرب، بل له أمثلة من القرآن الكريم نحو قوله ﷻ: ﴿**وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا**﴾[٤] والمعنى – كما أجمع على ذلك أهل اللغة – أي اسأل أهل القرية.

- وقيل الضلال بمعنى الحب، وقد ورد هذا فى القرآن الكريم وذلك فى قوله ﷻ حكاية عن إخوة يوسف لما قالوا لأبيهم يعقوب – عليه السلام – : ﴿**قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥)**﴾ [٥] أي ما زلت ثابتاً على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ٩٦/٢٠ .
(٢) سورة الشورى/ من الآية ٥٢ .
(٣) البحر المحيط ، ٨ / ٤٨١ .
(٤) سورة يوسف/ من الآية ٨٢ .
(٥) سورة يوسف/ من الآية ٩٥ .

حبك القديم ليوسف، وعلى هذا يكون المعنى فى حق النبى ﷺ ووجدك محباً للهداية فهداك إليها، وهذا المعنى يليق بمقام النبى ﷺ وهو عكس ما يظنه البعض من أن الضلال بمعنى البعد عن الهداية.

- ومن أكمل المعانى فى هذا الشأن ما ساقه القرطبى – رحمه الله – حين قال: (وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة فيُهتدي بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَآلا**﴾ أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديتُ بك الخلق إليَّ) [1]، أى كما يهتدى المسافرون فى الصحراء بالشجرة الضالة أى الوحيدة المنفردة على الطريق الصحيح .

المسألة السابعة: لم جاء ترتيب الآيات على هذا النحو:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨)﴾ ؟

والجواب: إن المتأمل فى هذا الترتيب يجده متناسباً مع متطلبات حياة مراحل نمو الإنسان، فعندما يكون صغيراً قد يفقد أباه فيصير يتيماً محتاجاً ليد العناية والرعاية، وعندما يشب عن الطوق ويبلغ سن التكليف تظهر حاجته إلى الهداية والاسترشاد على طريق الحق، ثم يتخطى مرحلة البلوغ ليدخل فى مرحلة الشباب التى يكون فيها السعى على الرزق وطلب المعاش وفيها تكون حاجة المرء للمال والغنى ، فجاءت الآيات متناسقة مع هذه الحاجات البشرية .

المسألة الثامنة: لم جعلت الآية مع اليتيم القهر، ومع السائل النهر، فقال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠)﴾ ؟

الجواب: لا بد أولاً من معرفة معنى القهر ومعنى النهر، فالقهر في اللغة هو: التسلط بما يؤذي، ولا تقهره بمعنى لا تظلمه بتضييع حقه، ولا تتسلط عليه، أو لا تحتقره أو تغلب على ماله، كل هذه المعاني تدخل تحت كلمة القهر.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٨– ٩٩ .

وأما النهر فهو: الزجر والغلظة فى القول، وكلا الفعلين مناسب مع حال المفعول به، فحالة اليتيم وهو الطفل الصغير غير البالغ الذى لا أب له تجعله عرضة لاجتراء الناس عليه بالقهر والتسلط لعلمهم بعجزه عن الدفاع عن نفسه وعدم وجود ولى أمره الذى يذود عنه ويدفع عنه القهر والعدوان، أما السائل الذى يستجدى الناس فى الطرقات فهو أحوج ما يكون لإحسانهم وطيب لقياهم والعطف عليه مادياً ومعنوياً فناسبت حالته النهى عن نهره وطرده والإغلاظ معه، ويدخل تحت السائل "طالب العلم" مع معلمه فهو أحوج إلى لين شيخه معه، وعدم الشدة عليه أو الإغلاظ له بالقول، فإن ذلك من آداب العالم مع المتعلم .

قال الثعلبى: (وقرأ النخعي والشعبي: فلا تكهر، بالكاف، وكذلك هو في مصحف عبد الله، والعرب تعاقب بين القاف والكاف، يدل عليه حديث معاوية بن الحكم الذي تكلّم في الصلاة، قال: ما كهرني، ولا ضربني)[1]، وفى قول الثعلبى: (وكذلك هو في مصحف عبد الله) أي عبد الله بن مسعود فقد وردت هذه القراءة فى مصحفه، والكهر هو العبوس فى الوجه، وفلان ذو كهرورة عابس الوجه، وفى الآية دعوة إلى الإحسان بالقول والفعل وذلك حال المسلم مع الضعفاء والمحتاجين .... والله أعلى وأعلم .

المسألة التاسعة: ما التوجيه الذى يدلنا عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ (١١)﴾؟

والجواب: النعمة هى كل خير يصيب الإنسان فى دينه ودنياه، ونعمة ربك لفظ عام شامل لكل نعم الله ﷻ على عبده فى دينه ودنياه، قال ابن عاشور: (وليس المراد بنعمة ربك نعمة خاصة وإنما أريد الجنس فيفيد عموماً في المقام الخطابي، أي حدث ما أنعم الله به عليك من النعم) [2]، وهذه الآية فيها أمر من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يتحدث بنعمة الله ﷻ عليه

(١) الكشف والبيان، أحمد بن محمد الثعلبى النيسابورى، ١٠/ ٢٢٩ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٣٥٦

كالنبوة والقرآن والدعوة إلى الإسلام والإيمان بنبوته، فقد كان يخاطب الناس ويعلمهم الإسلام فيقول لمن يخاطبه: أن تشهد أن لا اله إلا الله وأني رسول الله كذلك تعريفه الناس بحقه عليهم من الطاعة والتوقير والاحترام، حتى نزلت الآيات مبينة لحقه على أمته – كما فى سورة الأحزاب والحجرات وغيرهما، فتكون الآية الكريمة إرشاداً للعبد المسلم أن يتحدث بنعم الله ﷻ عليه فى دينه ودنياه ، فكيف يفعل العبد ذلك ؟

اختلف العلماء فى هذه المسألة خاصة مع ضعف إيمان كثير من الناس وعدم أمنهم من دبيب الرياء والفخر وظن الناس بهم مظنة الغرور والترفع عليهم بالحديث عن نِعم الله ﷻ عليهم، فذهب بعض السلف إلى أن التحدث بالنعمة تكون للثقة من الإخوان ممن يثق به، ونقل الطاهر بن عاشور عن ابنالعربي المالكى – رحمه الله – قوله: (إن التحدث بالعمل يكون بإخلاص من النية عند أهل الثقة فإنه ربما خرج إلى الرياء وإساءة الظن بصاحبه) [١]، وذكر الفخر والقرطبيوابن عاشور وغيرهمعن الحسن بن علي قوله: "إذا أصبت خيراً أو عملت خيراً فحدِّث به الثقة من إخوانك" قال الفخر: (إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء وظن أن غيره يقتدي به) [٢]، أما فى أمور الدنيا فمن الحديث بالنعمة إظهارها بالملبس والمركب قال النبى ﷺ: "إن الله يحب أن يرى أثرنعمته على عبده) [٣]، فيظهرها العبد بلبس الجديد من الثياب، النقى من غير فخر ولا بطر، ولا يكون من مكافأة نعمة الله ﷻ على العبد المسلم أن يُخالط الناس بالثوب القذر والهيئة المنفرة، وكذا فى اتخاذ مركبة صالحة له تيسر له سبيل الانتقال إلى مطالب العلم ومواطن الرزق فيكون ذلك من باب التحدث بنعمة الله ﷻ على العبد وإظهارها، بيد أننا نجد فى هذا الزمان بعضاً من

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦ / ٣٨١ .
(٢) مفاتيح الغيب ، ١ / ٤٧٧٨ .
(٣) الجامع الصحيح سنن الترمذى، محمد بن عيسى الترمذى، ١٢٣/٥، ورقمه ٢٨١٩، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

الناس ممن تملكتهم وساوس الشيطان وسيطرت على نفوسهم مخاوف الحسد وضياع النعمة منهم بكلام الناس فأخفوها وبالغوا فى كتمان نعم الله عليهم، فلا تلقاه إلا عابس الوجه مهموماً يسبقك بالشكوى قبل أن تسأله عن حاله، مظهراً ما به من بلايا ساتراً ما ينعم فيه من نِعمٍ وعطايا ، فهو إلى جحود نِعم سيده عليه أقرب من شكرها، ومن الكذب على الناس ألصق من الصدق معهم ولا يزال هكذا حاله حتى يفضح الله أمره ويكشف ستره فيعلم الناس حقيقته فيستوحشونه وينفضون عنه، وايم الله أن هذا ليس من خلق المسلم الواثق بربه الشاكر لمولاه .